

النص الأدبي وإشكالية القراءة التفكيكية

د. عبد الرزاق علا

جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي-

ملخص:

من المقاصد النقدية لفلسفة التفكيك هو توسيع فضاء الممارسات التأويلية إلى خارج حدود العلامة اللغوية ، وهذا ما جعل النصوص الأدبية تقع تحت سلطة القارئ . إن تسليم الحرية المطلقة للقارئ هو بمثابة تسليم سلطة النص الأدبي إلى سلطة القارئ محاولة منه للغوص في أغواره واستجلاء معانيه. ولكن هل تكون هذه المعاني وفق مقاصد المؤلف ، أم وفق مقاصد القارئ ؟. وهو ما سنحاول طرحه في هذه المداخلة والإشارة إليه.

النص الأدبي وسلطة المؤلف

إن النص الأدبي هو نتاج فردي لمؤلف ما ، كما لا يمكن أن يوجد نص مالم يكن هناك كاتب يقوم بإنتاجه، وهو صورة حقيقية لمبدعه المتجلية في صياغته التعبيرية ، ولعلّ هذا الارتباط العضوي بين المؤلف والنص هو الذي يعطي السلطة للمبدع لإبراز مقاصده والتعبير عن نواياه، "إن الكاتب أو المؤلف وهو يكتب كلماته أو يؤلف بينها " يبني" عوالم نصه وفق كيفية ما : محاكيا بناءات موجودة أو مبدعا في نطاق الممكن النوعي ،طرائق جديدة في تنظيم بنياته النصية التي يتشكل منها النص وفق رؤيته لعمله الإبداعي"¹ فالعلاقة القائمة بين النص والمبدع هي علاقة ترابطية متشابكة الاتصال تعيش في ذهن المبدع وتلازمه وهكذا تحظر سلطة الكاتب أثناء الكتابة ، فالكتابة واجب حر» واجب محترم على الكتاب يؤذيه للمجتمع ولا يستطيع الإفلات من فعله، لا يسعه إذن إلا أن يكتب إلا أن يقول شيئا إلا أن يدبج نسوجا لغوية ينفخ فيها من روحه وخياله وعقله معا طاقات دلالية جديدة لا توجد،أولا تكاد توجد في المعاجم ،فإنها لغته وحده من دون العالمين، لغته هو وحده لأنه يمنحها من دفء جنانه،ودفق حنانه وسخاء خياله،ما يجعلها تنطبع بطابعه،وتشم بشخصيته الأدبية»². وإذا تبنت لغة النص وبنيته الداخلية وجب الإقرار بأن النظام اللغوي الذي يشكل العمل الأدبي هو مصدر سلطة الإلهام لدى المبدع ومنبع القيم الأسلوبية والفنية ،كما أن المؤلف مقيد بمستوى لغوي معين يحدده من خلاله الوضع الاجتماعي والاقتصادي والروحي والثقافي للمرحلة التي يعيش فيها، فيصنع بكلماته نصا أدبيا يلامس به الواقع « فالسلوك الإنساني ليس إلا إعادة إنتاج لبعض ما يختزنه في ذاكراته الطويلة أو القصيرة استجابة إلى ما يجابهه من مواقف وما يجده فيه نفسه من أوضاع،وهي

بهذا تسلب الكائن الإنساني كل ملكته الإبداعية وتبالغ في المشابهة بين مفهوم التطور وبين السلوك اللغوي»³ ومن ذلك تنتقل سلطة الذات المبدعة داخل البنيات اللغوية التي يتشكل منها النص « فتتقلب العلاقة بين النص ومبدعه من علاقة الابن بأبيه، حيث ينتسب الابن إلى أبيه، وحيث أن وجود الأب سابق على وجود الابن إلى علاقة ناسخ ومنسوخ يتحول فيها المؤلف إلى ناسخ لا مبدع، يستنسخ نصه مستمدا وجوده من المخزون اللغوي الذي يعيش في داخله بالإضافة إلى المخزونات الأخرى، ثقافية اجتماعية تاريخية... فيصير ضوء ذلك شبكة من الكتابات المتعددة المترسية مع مرور الأزمنة في ذهن المبدع»⁴. و من هنا يتجسد النص الأدبي كبنية فنية جمالية ، وهو ما ذهب إليه "رولان بارت" أثناء حديثه عن العلاقة الموجودة بين النص و مبدعه في قوله: « الكتابة فضاء على كل صوت، وعلى كل أصل. الكتابة هي الحياة، هذا التأليف واللف التي تتيه فيه ذاتنا الفاعلة إنها المواد البياض المدى تضيع فيه كل هوية ابتداء من هوية الجسد الذي يكتب»⁵. فالمبدع يمتن فعل الكتابة، والكتابة تعني التوضع داخل مسار خطي يعني به قراءة الذات والنظر إليها بتمعن مطلق وفهم خصوصياتها التي تنطوي عليها ، والكتابة عندما تتخذ سمة الإبداع في الأعمال الفنية فإنها تتخذ فضاء محددًا تجسّد صورته المماثلة وذلك بوضع العلاقات الدالة على خصوصية الشكل المكتوب إضافة إلى سلطة الذات المبدعة « التي تتوالت في القرينة، وتتعاقد في المخيلة من الألفاظ شاردة، إلى نسوج ماثلة هي التي تضع إلى ميلاد النص الذي هو ابن الكتابة، وهذا النص المائل هو الذي يعلن ميلاد أدب جميل القسّمات، بهي الطلعة ، هو الرواية، أو القصة أو القصيدة أو أي شكل آخر من أشكال الكتابة الفنية»⁶ إن هذا النتاج الحاصل من كلمات في نسق وسياق معين يضعه المبدع في نص لكي يقف على العديد من الطروحات التاريخية والسوسيولوجية، والسياسية والنفسية والاجتماعية هادفا إلى تحرير حركة المخيلة، وإيقاظ بكر العملية الإبداعية .

ومن منطلق سلطة الكاتب المبدع على النص تتشكل العملية الإبداعية في المخيلة لتظهر أثناء الكتابة التي يفرزها في قوالب فنية، ويلبسها مجموعة من الأفكار والتصورات « فالنص بهذا نسيج من المعاني والإدراكات الواقعية والاستجابات الجمالية الملازمة له في إنتاجه التخيلي لذلك الواقع يتناوله بالتحليل والوصف»⁷، الذي يعبر عن موقف محدد إزاء الواقع، وهو الموقف الناشئ عن تصورات ذهنية مستندة في جميع أبعادها إلى ملابسات الواقع المعيش، وعليه يمكن التأكيد على الدور الفعلي للواقع في صياغة التصورات الذهنية للفرد، وهي التصورات المحددة لطبيعة الأيدولوجيا، والمتجسدة في شكل موقف محدد تجاه المجتمع»⁸. ومن هذه المنطلقات يتجلى الإبداع الأدبي بخاصة كهاجس وطلب ملح فهو انشغال يكاد لا يفارق صاحبه، يسكنه كروحه، ويصاحبه كظله، وهذا ما يجعل المؤلف يجعل النص الأدبي الذي ينتجه بمثابة الوعاء الذي يصبّ فيه ما يعتريه داخليا من نزوات ومكبوتات «فالإنسان عندما

⁶ -عبد الله مالك مرتاض- نظرية النص الأدبي ،دار هومة ،الجزائر، دط -2007، ص 115.

⁷ - إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، ص 52.

⁸ - فتحي بوحالفة ،التجربة الرائية المغاربية، ص 166.

يفكر طويلا يشعر أنه وصل من ذلك إلى شيء ما. ولكنه لم يستطيع أن يشكل ما توصل إليه تعبيرا، فإن أفكاره والحالة هذه تظل حبسة نفسه معدومة القيمة. لهذا فإن اللغة التي هي آلة الفكر وخادمة تقدم للإنسان في تفكيره وتصوره الوعاء الحقيقي الذي يستطيع أن يرفع من قيمة فكره ويحافظ عليه.⁹ فلهذا نجد المبدع حريصا على أن يجسّد تلك الصور و الحقائق الموجودة في عالمه سواء الداخلي أو الخارجي لتتشكل لديه مجموعة من التصورات والرؤى يحاول توصيلها من وجهة نظر معينة» لذلك لا يستطيع أن يرفض ما ألم بمخيلته، فتخطفه القريحة، وتفرضه نسجا من الكلام يعجب المتلقي أولا يعجبه ولكنه يظل قائم الذات، ثابت الوجود، على كل حال. بل إن الكاتب في كل ذلك لا يعرف على وجه الثقة لا الألفاظ التي يصطنعها للتعبير عن هواجسه أو وجدانه أو أفكاره¹⁰.

2- إشكالية القراءة التفكيكية:

من المتعارف عليه نقديا أن القراءات النقدية للأعمال الإبداعية تعمل على استكشاف الخصائص الفنية للنص الأدبي و استنكاها السمات الأسلوبية والتعبيرية والجمالية التي احتواها النص ، الذي يعدّ القناة التي تربط المرسل (الكاتب) بالمتلقي (القارئ)، وانتفاء النص يعني عدم حصول عملية التواصل ، ومما هو متداول كذلك في مجال الدراسات النقدية المعاصرة والنظرية التأويلية أن النص يتشكل من ثلاثة عناصر متداخلة ، ينتج عنها تفاعل وهي المخاطب (المرسل) والمخاطب (الرسالة) والمخاطب (المتلقي) أو القارئ ، هذا الأخير الذي يقوم بعملية تفكيك العناصر اللغوية ومن ثمة محاولة فهمها وإعادة تأويلها حسب السياق الذي قيلت فيه ، وكذا إعادة تركيب الجو النفسي الذي أنتج في سياقه النص ولكي تتم عملية التواصل بصورة طبيعية يجب على القارئ أن يكون قادرا على خلق فضاء جمالي يكون في مستوى فضاء النص الأدبي ، ولتحقيق هذا الغرض يتعين على القارئ أن يحلل النص المدروس تحليلًا إبداعيا يركز فيه على عناصر الإبداع والجمال ، ثم يربطها بالسياقات الثقافية والاجتماعية التي ولد فيها هذا النص¹¹ لأن القارئ تصبح لديه السلطة المطلقة في عملية تأويل النص، وفاعليته في استنكاها حقائقه ، محاولة منه للوصول إلى المسكوت، لكن الحرية المتاحة للقارئ تبقى رهينة التوابث الدلالية التي تشكل بنية النص ، وهذا ما أشار إليه ميشال ريفاتير في سياق حديثه عن طبعة العلاقة الجدلية بين النص والقارئ إذ يقول: "إن القراءة الأولى هي مفتاح القراءة الثانية ، بيد أن حرية القارئ في التأويل محدودة بسبب تشبيع النص بالمقومات الدلالية والشكلية بمنشئها ، أي أن التواصل الكلي والانسجام يشيران إلى أن الوحدة السيميوطيقية تكمن في النص ذاته"¹² فسلطة القارئ على النص تكون محدودة وفق ما يفرضه السياق الدلالي لا إلى التصرف في البنية الغائبة تصرفا غير منضبط بآليات النص وسياقه الحضاري – وهو ما تدعو إليه القراءة التفكيكية- ، وهو ما أشار إليه الباحث طه حسين ، حينما تحدث عن الانزلاق في الممارسة التأويلية التي تنتهي إلى اللامعني قائلا: " معلوم أن آفة الآفات التي يتعرض لها البحث في المضامين المسكوت

⁹ - د. عبد الفتاح أحمد بوزيدة- الكتابة والإبداع- دراسة في طبيعة النص الأدبي ولغة الإبداع- منشورات elga د. ط 2000 ص126.

¹⁰ - عبد المالك مرتاض ، نظرية النص الأدبي ، ص116.

عنها هو تقويل ما لم يُقل ، ثم ترتيب أحكام على ذلك ¹³ هذه الأحكام قد تكون افتراءات فرضتها تأويلات القارئ الذي جرّ النص إلى متاهات لا نهائية أفضت إلى عالم غريب من الدلالات عن جوهر المعاني الأصلية.

إن تسليم الحرية المطلقة للقارئ لإعادة إنتاج النص من جديد هو بمثابة تسليم سلطة النص الأدبي إلى سلطة القارئ الذي يجوب رحابه، ويغوص في أغواره لاستجلاء المعاني العميقة التي يفرضها وفق مقاصد المؤلف، لا إلى استنطاقه والاعتداء عليه وفرض سلطة جبرية من قبل قارئه ، ولعل من المقاصد النقدية لفلسفة التفكيك هو توسيع فضاء الممارسات التأويلية إلى خارج حدود العلامة اللغوية ، وفسح المجال لتعدد التأويلات اللانهائية ومن ثم يتسع مجال الاشتغال التأويلي ليمتد إلى عالم العبث الفكري الذي يحيد عن ضوابط النص ومعامله وهو ما أشار إليه الدكتور عزيز عدنان قائلا: "ولعل ممارسة الجبرية والقهر على النص ، أو ما يشبه التعذيب الحسي والنفسي ، مبعثه العجز عن مواجهة النص القادر على الإحياء المتواصل ، والمتجدد للمعاني الخصبة ."¹⁴ ومن ثمة يجب على القارئ أن يتعامل مع النص الأدبي كمعطى خارجي واقعي ، إذ لا يجب أن يصبغه بعواطفه ومشاعره وبالتالي يحمله مالم يقله ، وأغلب الظن أن النزوع إلى نزوة التسلط والسيطرة على النص يفضي إلى قصور في فهم النص ، وعجز عن إدراك حقيقته "ولعل ما يشرع لهذا العنف النقدي هو اعتبار النص مجرد موضوع قابل لأن يسלט عليه عنوة مختلف أساليب التعذيب ليبوح بمكنوناته "¹⁵ لأن القارئ في هذه الحالة لا يرى في النص إلا ما يهيمه ، لذلك نجد القراء التفكيكية تتسم بالعنف باعتبارها مهوسة بنسف كل القوانين اللغوية والتمرد المستمر على القصديّة "إنها منهجية نقدية استفزازية لا يروقها الاستقرار النصي والثبات الدلالي وهذا ما عبر عنه صراحة أحد دعاة الهدم والتقويض بقوله : إن خاصية اللغة الأدبية تكمن في إمكانية إساءة القراءة وإساءة الفهم"¹⁶ ، أي توظيف النص لإثبات قضية أو نفها، وإذا قام القارئ بفرض تصورات ومفاهيمه على النص فإنه يحطم بذلك منطق النوعي ويعطل وظائفه ويجمد اشتغاله. وقد يكون مفهوم القارئ نفسه مناقضا لمفهوم الكاتب لأنه لم يقرأ النص من آلياته وخصوصياته ، فيمارس عليه نوعا من التسلط والعنف لأن العنف غالبا ما يكون عبارة عن ربط متخيل النص بمرجعياته ربطا آليا دون البحث عن خصوصياته ودلالاته الإيحائية "¹⁷.

يقول الدكتور عزيز عدنان : " إن الحرية المطلقة المتاحة للقارئ في التصرف الحرفي النص الأدبي لدرجة إعادة تشكيله وإنشائه تزيدنا استبصارا بسوء النية في الإساءة إلى النص ، وهي إساءة تتجاوز حدود أخلاق الممارسة التأويلية وتتخطى ثوابت النظام اللغوي إلى فضاءات مجهولة توجهها نزوات التسلط "¹⁸ وهو مما يجعل النص يبوح بأشياء تحت وطأة التعذيب وهو ما أشار إليه الدكتور كريسوفر بطر صراحة بقوله: "إن إطار النقد التفكيكي الأيديولوجي يتميز بملحمين أساسيين : أولهما هجومه على أنواع التفسير الإنساني

أو الأخلاقي للنص، وثانيتها اعتقاده بأن رؤيته المتفوقة للتاريخ والسياسة التي تنبع من النظرية الماركسية العلمية تستطيع أن تهدم التفسيرات الأخلاقية والإنسانية للعمل¹⁹ ومن خلال هذا القول نلتبس بأن القراءة التفكيكية بوصفها آلية الغياب والتقويض والتهالك هو مسلك توجهه نوايا أيولوجية تطمح إلى طمس معالم النص الإنسانية والتاريخية والأخلاقية ومن المفارقات العجيبة والمتناقضات الغربية كما يقول الدكتور عزيز عدمان أن دعاة النقد التفكيكي وعلى اختلاف مشاربهم المذهبية يتوارون خلف عبارات النص المفتوح ، الغلب قصد البناء، لا نهائية الدلالة ، الاستنطاق ، ملء شواغر النص، ما سكت عنه المؤلف الخ كلها شعارات ظاهرها العفة وباطنها الهجوم على القيم الإنسانية والدينية والأخلاقية والروحية المشكلة للنص.

وفي الختام نقول بأنه يتعين على القارئ مساءلة النص والإنصات إليه جيدا وفك شفراته ومن ثمة محاولة وضعه داخل النسق الثقافي الذي أنشئ فيه، كي يتم إبراز القيم الفنية والجمالية والمضمونية التي مجدها النص، لا بتسليط عليه سلطة مطلقة تنهك قيمه الأخلاقية والإنسانية ، لأن النقد في نهاية المطاف تزكية للنصوص الأدبية وليست محاكمة قضائية .

الهوامش:

- 1- عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينت من النص إلى المناص)، الدار العربية للنشر والتوزيع، منشورات الاختلاف، ط1-2008 ص15.
- 2- عبد المالك مرتاض -في نظرية النقد -متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد نظرياتها، الجزائر دار هومة د ط-2005 ص08.
- 3- محمد مفتاح-دينامية النص-(تنظير وانجاز)، المركز الثقافي العربي ط2-1990 ص4.
- 4- عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير من النبوة إلى التشريعية- مقدمة نظرية-دراسة تطبيقية-دار الصباح الكويت ط3-1993 ص72.
- 5- رولان بارت "درسا في السيملولوجيا"ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ط1-1986 ص81.
- 6- عبد الله مالك مرتاض- نظرية النص الأدبي ، دار هومة ، الجزائر، دط -2007، ص 115.
- 7- إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، ص52.
- 8- فتحي بوخالفة ، التجربة الرائية المغاربية، ص166.
- 9- د.عبد الفتاح أحمد بوزيدة-الكتابة والإبداع-دراسة في طبيعة النص الأدبي ولغة الإبداع- منشورات elga د.ط 2000 ص126.
- 10- عبد المالك مرتاض ، نظرية النص الأدبي ، ص116.
- 11- حسين خمري سرديات النقد -في تحليل آليات الخطاب النقدي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1-2011، ص63.
- 12- عزيز عدمان ، دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1-2011، ص11.
- 13- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث ، المركز الثقافي العربي، بيروت ، ط1-1994، ص139.
- 14- المرجع السابق، ص186.
- 15- المرجع نفسه 116.

- 16- عزيز عدمان، دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر، ص111..
- 17- ينظر: حسين خمري، سرديات النقد – في تحليل الخطاب الأدبي- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1-2001، ص133
- 18- عزيز عدمان، دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر، ص111.
- 19- كريستوفر بتلر، التفسير والتفكيك والإيديولوجيا، تر: نهاد صليحة ، مجلة فصول ، المجلد 5 العدد3، القاهرة ، ماي1985، ص92،93.